من رباعيات عمر الخيام

ان النباهة التي بلغها عمر الخيام برباعياته لعظيمة جداً وقد تحريت عن الرجل فوجدتهُ عالماً فيلسوفاً طبيباً جراحاً فلكياً. وقد لقبهُ ابن القفطي في كتابهِ تاريخ الحكماء بعلامة الزمان وادبة الفرس يعدونهُ في الطبقة الثالثة من الشعراء. ومؤلفاتهُ تشهد لهُ بباع طويل في الحساب والفلك لا الشعر. وقد همت ان انقل رباعياتهِ عن الفارسية الى العربية بعد ظهور الترجمة الاولى لرباعياتهِ عن الانكليزية. ولما كنت في القاهرة تحدثت مع احد الادباء العراقيين في هذا الشأن سنة ١٩١٨ الاَّ انني لم اجد من يعينني على هذا العمل حتى عدت الى بغداد فرأيت الاديب احمد حامد افندي الصراف وهو شاب عرف باللغتين العربية والفارسية ومتأدب في كليتهما فسألتهُ عن ذلك فاستحسن الرأي وبادرنا الى ذلك هو ينثر وانا انظم حتى انتهينا من نظم ما ينوف على مائة وستين رباعية اجمعت الآراء على انهـا اصحّ ما قالهُ عمر الخيام واحسنهُ. وقدمنا للكتاب مقدمة جليلة الشأن كتبها لنا ثلاثة من فطاحل الادب الفارسي والعربي اشتملت على امور كانت مجهولة لدى الافرنج والعرب الذين تصدّوا لذكر عمر الخيام مع مقايسة بينهُ وبين من كان في عصرهِ من الادباء كابن شبل البغدادي وبين من سبقهُ منهم كالمعري وبشار وابي نواس والمتنبي وغيرهم وذكرنا ابن الراوندي ايضاً. وفيها اخبار كثيرة ونوادر ذكرها علماء الفرس عنهُ

وقد رأيت ان ارسل الى المقتطف الاغر بهذه الرباعيات لتكون انموذجاً لغيرها تعجيلاً بنشرها قبل ان تمثل للطبع واليك هي:

قال في مذهبهِ الذي اكثر من ذكرهِ في رباعياتهِ:

(١)

كن سعيداً ستهلكُ الكائناتُ
وستجري مع الدم العبراتُ
فكؤوس الرؤوس مستكثراتُ
وكأين منها كسير ذليلُ تحت رجل الخزاف رهن صغارِ

(٢)

رب خزاف قد رمى في السوق
كسرة من غضارة (١) الابريق
سامها الخسف في ممر الطريق
فاجابتهُ : كنتُ مثلك يوماً فاحترمني وخلِّ عنك احتقاري

ومن قافية اخرى في هذا المذهب ايضاً قولهُ :

(٣)

زرت دار الخزاف ليلة امس
فعددت الكؤوس في الفكاس
ناطقات على المسامع خرس
قائلات : اين الذي صاغني ؟ اين الذي باعني ؟ ومن ذا شراني

(٤)

فليطل عهد فتنتي بالشراب
وبناي اصغي لهُ ورباب
فاذا ما الخزاف صاغ ترابي
كوبة فلتكن من الخمر ملأى ابد الدهر ما اتى اللوان

(٥)

فبخمر اذا اموت اغسلوني
وبخمر وكأسها لفنوني
ان اردتم لقياي يوم الدين
فتراب الحانوت ميعاد لقياي ومنهُ اعود بعد فنائي
انا والخمر والحبيب المليحُ
انا والقلب رهنها والروحُ
لا رجاء لنا ولا تسبيحُ
انا حرٌّ من العناصر نار وتراب ومن هواء وماء

(١) الغضارة الطين

(٦)

نهب الصبح يا نديم لواه
حالكاً من يد الظلام وجاه
قم ادرها عتيقة صفراء
وانف عن جفنك الكرى فستلقى بعد هذا الرقاد نوماً طويلا

(٧)

ومن حكمه قولهُ ايضاً

ما صفت لامرىء لبيب حياةُ
ريق من ذ عذب بفيهِ فراتُ
أغانٍ او سبع الدائراتُ
قل ! فلا بد — والحياة امان ان ستثوي في اللحد او في الفلاة

(٨)

جيئتي في الدنيا اذًى واضطرابُ
وبقائي تحيُّر وارتيابُ
وبقبر يكون مني ذهابُ
اي قصد من جيئة وبقاء وذهاب ؟ قد ضلَّت الالبابُ

(٩)

كم اناس قبلي وقبلك كانوا
تزدهي امصارُ بهم وتزانُ
فتربص فسوف يأتي زمان
انت تمشي فيهِ تراباً ومن جسمك يبنى لالف جسم تراب

(١٠)

ومن اعاجيبهِ قوله :

فلك متهُ كلنا في ضلالِ
مثل فانوس في انقضاء خيالي
فذكاء مصباحهُ التلالي
فيهِ والعالم الزجاج وانّا صور فيهِ حائرون قيامُ

حركة التطوُّر في ازدياد وقد اضيفت اليها عناصر فنية متنوعة

***

أهي يقظة الفكر عند الافراد تهيء اليقظة القومية ام هي يقظة الجمهور ومطالبهُ والاحوال المحيطة به التي تخلق الافراد وتجبرهم بالمواهب الضرورية ليتكاموا بصوت الجماعة ؟ أظنُّ ان التفاعل هنا حتم كما هو في كلِّ امر آخر. فالافراد يخلقون الجمهور والجمهورُ يخلق الافراد. لأن القوى البشرية محكمة الترابط فما يبتها بغاظ انتبهت احداها تأثرت بذلك الانتباه جميع القوى وهبَّت متجدِّدة نابضة ، مبدعة. كأنها الصوت الواحد يحدث هزةً في مكان من الهواء فتتناقلهُ الموجات المتسارعة حتى يرنَّ في اقطاب الفلك جميعاً

ولكن يخيَّل انهُ قبل تنفيذ اي عمل يقتضي رسم خريطة خيالية جلية في الذهن الناضج الصافي. خريطة من الخرائط التي يسميها المتكلِّمون « نظريات ». وهذه النظريات التي تثني لذكرها شفاهُ العمليين هي من الاهمية بحيث ان الطبيعة لا تجمعُ عادةً (وان فعلت نادراً بشذوذ جميل) بين مقدرتيِّ النظر والعمل في شخص واحد. اذ انَّ لكلٍّ منهما صفات تنافي صفات الاخرى. يهيء النظريون الخرائط الذهنية ، فينظر فيها سواهم بين النقد والتمحيص مستخرجين منها ما لاءم حاجة الوقت ، وينفذها آخرون فتصير شيئاً محسوساً يُستخدم ويخدم. كانا هي « المُثُل الافلاطونية » التي بموجب نظريتها لا تكون المحسوسات الاَّ انعكاس افكار هي كائنة في ذهن الإله الاعظم . تلك هي حكاية التطرف اللاسلكي التي ابتدأت مع مكسويل وهرتز وبرنلي نظريات وتعديلات علمية ، فصارت مع ماركوني عاملاً آلياً تمتلهُ عواري الهواء في نقل الافكار. وتلك هي حكاية القوَّاصات التي كانت في كتب جول فرن الفرنسوي رُؤىً واخيلة علمية .فبسط اديسن الامريكاني لوزارة بحرية بلاده إمكان إنشائها في تقرير نسخهُ الالمان سرّاً ، وسيروها خلال الحرب مُدُنّاً متحركة تحفر البحار وتصادر سفن الاعداء وسفن من كان لهم موالياً وظهيراً . وتلك هي حكاية الثورة الفرنساوية اعدَّها الكتَّاب والمفكِّرون، والثورة الروسية التي مهَّد لها الروائيون والشعراء سبيلاً